

## المولد النبوي الشريف في الجزائر (عبر العصور)

بقلم: الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي

فشاد مجتمعا إسلاميا عادلا خاليا  
من الحقد والأنانية وأمراض الفرقة  
والخصام، ودك حصون الظلم  
والعدوان، وزرع تعاليم الله سبحانه  
وتعالى في صدق وأمان، وعلم في تسامح  
ورفق، وأرشد في لين ويسر.

أنبئوني، أيها الاخوة الكرام، كيف  
نشأت مثل هذه الأعمال عن وليد نشأ  
يتيما بصحراء قاحلة مقفرة من أرض  
الجزيرة العربية منذ عصر بعيد، بواد  
غير ذي زرع ولا ماء ولا ضرع، نشأ مقلّا  
لم يترك له والده من المال سوى خمسة  
جمال وقطيع من الغنم وجارية، ويروى  
أقل من ذلك، ولم يكن له ما يستعين  
به على الاستغناء عن الكسب، فكان  
يرعى الغنم والقوم في تشتت وتفرق،  
هناك غارات مشتبكة، وإحن وحزانات  
متوارثة وعادات أليمة قائمة، وهناك

تحتفل الجزائر اليوم على غرار  
بقية دول العالم الإسلامي بذكرى  
المولد النبوي الشريف.

فتفرح بنعمة الإسلام، وتسعد  
برسالته وتجدد تمسكها بمبادئه  
وقيمه وتحرص على سلوك طريقه،  
وتحيي بهذه المناسبة الفضائل والقيم  
الإنسانية والحضارية التي جاء بها  
سيد الخلق، ومنقذ البشرية منذ ما  
ينيف عن أربعة عشر قرنا، وصوبها  
نحو طريق الحق والعدل والصدق.

\*\*\*

دعا إلى الوحدة والتوحيد والعلم  
والعمل والاخوة والتضامن والتعاون  
والتكافل والتآزر والجهاد والتضحية  
والفداء والصحبة والسلام والرحمة  
والرفق بالضعفاء، ونهي عن المنكر  
والفرقة والمشاحنة والاعتداء والظلم  
وأكل مال الآخرين.

مما دعا ذلك إلى التعصب البغيض والجمود القاتل فقالت: اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء، وفي الجزيرة العربية نفسها يصرح جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة حينما طالب موفد قريش من ملك الحبشة أن يعيد إليهم من هاجر إليه، قال في رده عن تساؤلات الملك الحبشي عن الكيان العربي بالجزيرة يومئذ قال له: "أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، الخ..."

هكذا كان وضع المجتمع البشري عند العرب والعجم شرقا وغربا حيث لا نبوة ولا رسالة - ففي عباب بحر هذا الظلام الدامس، وقصته السوداء كان من رحمته سبحانه وتعالى بعباده ورافقه بخلقه أن كشف عنهم هذه الكربة، وأقلع عنهم القضة وقشع عنهم هذه الظلمة، **(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم**

بنات موءودة، وأمّهات متشردة وأرحام متقطعة، وعصبيات مستعصية، وعشائر متنازعة، وقلوب متنافرة، تعبد الأصنام، وتخضع للأوثان، وتخضع للأنصاب وتنصاع للألزام، وهذا ما كان يجري مثله في أعظم ثورة كانت لها السطوة على العالم في ذلك العصر السحيق مثل الدولتين ذوات الشوكة يومئذ، دولتي الروم والفرس، وأضف إلى ذلك شعب الأنجلوساكسون في غاراته على سواحل بحر الشمال، وما وقع من الحروب المزمنة يومئذ بين أولاد كلوفيس ملك الفرنجة... وما أصاب الامبراطورية المسيحية يومئذ من تدهور وتخلف الخ...

يقول المستشرق الإنكليزي مورو صاحب كتاب حياة محمد: "أن النصرانية في القرن السابع - وهو عصور النبي - قد أصبحت فاسدة مشوهة ومثله المؤرخ الإنكليزي جبون يقول: "إن النصرانية في القرن السابع قد استحانت إلى وثنية" وتنكرت كل من هذه الطوائف والفرق لبعضها بعضا

قوم، اليوم ينتهي تاريخ وابتدي تاريخ  
ليس بعد اليوم ملك ولا كاهن ولا  
سلطان ولا متجبر ولا قاهر، فالناس  
سواسية كأسنان المشط إنما العبادة  
لله والقيادة للرسول والسيادة للدين  
والدنيا للجميع (قل يا أهل الكتاب  
تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم  
أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً،  
ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون  
الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا  
مسلمون) (آل عمران 64).

وإذا بهذا الصوت الذي يقرع  
الأسماع فيملاً الدنيا دويًا، ويعم  
الأرجاء زكياً، وإذا بصاحبه يكوّن أمة،  
ويؤسس دولة ذات شوكة وعظمة،  
وإذا بهذه الدولة العربية المسلمة تسير  
مختلة تحت راية وليد اليوم والرجل  
المثالي العظيم في الغد، فتمتد دولته  
شرقاً إلى أقصى بلاد الهند، وغرباً إلى  
إسبانيا وأعماق إفريقيا.

وما لبث أن تغيرت المعايير وتبدلت  
الظروف والأحوال، وتوالى الأحداث  
وتلونت، هذا الوليد الذي انتقل من

آياته ويزكهم ويعلمهم الكتاب  
والحكمة... (الجمعة 2)، وهذا ما  
شرحه جعفر للملك الحبشي: فقال في  
مجرى كلامه: "حتى بعث الله إلينا رسولا  
منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته،  
وعفافه، فدعانا إلى توحيد الله وأن لا  
نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنا نعبد من  
الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وصلة  
الرحم وحسن الجوار، والكف عن  
المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش  
وقول الزور وأكل مال اليتيم وأمرنا  
بالصلاة، والصيام والزكاة والحج،  
فأما به وصدقناه ثم كان من شأن  
الملك الحبشي ما كان، نعم فإلى هذا  
كان يدعو محمد صلى الله عليه وسلم،  
حتى اشتهر بين قومه بالأمين، وناهيك  
أيها الأخوة الكرام، بهذا الوصف  
الجميل كمالاته وجلالاته واستوى عنده في  
دعوته هذه الملك والسوقة، والرئيس،  
والمرؤوس، والحر والعبد... وراسل في  
ذلك قياصرة الروم وهم في غفلتهم  
عمون، غير هباب ولا مرتاع رافعا  
صوته الرخيم الندي الكريم قائلا: يا

يتكهن؟ قالوا: اللهم لا، فقال تزعمون أنه كذاب، فهل جريتم عليه كذبا؟ قالوا: اللهم لا، ما جربنا عليه كذبا».

وهذا هرقل عظيم الروم يوم أن اجتمع به أبو سفيان حينما كان في تجارة له بأرض الشام وكان له حوار مع هرقل حول محمد عليه الصلاة والسلام، قال هرقل بعدما أنصت إلى كلام أبي سفيان وكلاهما كان حينئذ غير مسلم، فقال: «أعلم يا أبا سفيان فإن كان ما تقول - عن محمد حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجثمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه» كما ورد ذلك في البخاري، فهذا كلام في نهاية التقدير والإعجاب بمحمد ويزيدنا عجباً كون ذلك صادراً من غير مسلم والمخاطب به كذلك غير مسلم أيضاً.

وأنتقل إلى العصر الحديث هذا لننقل لكم ما يشهد به بعض الأعيان عن كبار رجال الثقافة والفلسفة

ظل اليتيم إلى ظل العز والمجد، لم يتغير موقفه فمعانه هو/هو، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مبالغا في الصيحة، آتياً بالهداية، منقذاً من العماية والضلالة، داعياً إلى الفرح، مبيناً السبيل إلى النجاح.

هذا ما نراه معترفاً به ومقرباً به حتى عند مخاليفه من المتصفين من بني عمه ففي عصر الجاهلية نرى ونسمع كما يحدثنا التاريخ أو الوليد بن المغيرة وهو من أكبر خصومه المشركين يذكر محمداً فيقول لصديق له: «والله قد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام البشر ولا هو من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق المنطق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، فيبلغ ذلك أبا جهل فيغضب له، ويعود الوليد بن المغيرة إلى المكان فيقول لهؤلاء: «يا قوم إنكم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يختنق قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر؟ اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه

## الدراسات

من الناس وأشاع حضارة في زمن قليل، وأكثر من هذا فإن زلزته قد عمت الجميع...ولقد غطت تعاليمه المنابر والأصنام والديانات والأفكار والعقائد والأرواح، وعلى أساس من كتاب أصبحت كل كلمة فيه قانونا متبعا واستطاع أن يحقق روحانية مزجت بين شعوب متعددة الألسن والأجناس.

لقد كانت فكرة التوحيد التي صدع بها محمد وسط الأساطير الجغرافية معجزة باهرة، حتى حطمت كل المعابد القديمة للأصنام وألهمت النار في ثلث الأرض ضد الأوثان ولدى كل متكبر جبار من إنس أو جان.

فإن حياته وتأملاته وشجاعته في تسفيه خرافات قومه، وجراته في تحدي شراسة الوثنية، وثباته في احتمال أذاها قرابة خمسة عشر عاما بمكة.

نعم كل هذا وقع، ثم هجرته وخطبه المتواصلة وكفاحه ضد العراقيين، وإيمانه بالانتصار، وهدوءه

والعلم والأدب والسياسة بأوروبا وغيرها وهم غير مسلمين.

فنرى أحد المنصفين منهم يقول ما ترجمته: «إذا كان جلال الهدف وضالة الوسائل وعظم النتائج هي المقاييس الثلاثة التي تقاس بها العبقريّة الإنسانية، فمن ذا الذي يجوز على مقارنة أي عظيم كان من عظماء التاريخ بمحمد؟...»

هذه كلمة الشاعر والكاتب الفرنسي الكبير والسياسي الخطير في القرن 19م "لامارتين".

ويستمر "لامارتين" في حديثه هذا عن محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: "إن أعظم مشاهير الرجال في إبداعهم لم يخلقوا ولم يؤسسوا على الإطلاق، إن كانوا قد أسسوا شيئا غير قوى منادية تراءت في أغلب الأحيان على مرأى من أعينهم فقط".

أما هذا الرجل وهو يعني به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه لم يحرك الجيوش والتشريعات والإمبراطوريات والملوك فحسب، ولكنه حرك ملايين

عند الشدائد هدوء يفوق طاقة البشر وعفوه عند الانتصار وطموحه الذي كان مكرسا لفكرة واحدة، لم يكن قط سعيًا وراء إمبراطورية أو تملك، وصولاته التي لا تنقطع ومناجاته لهؤلاء ثم انتصاراته على أعدائه حتى بعد موته، فإن كل هذا لا يدل على ادعاء بل على إيمان ثابت،... ويتابع «لا مارتين» كلامه هذا فيقول عن النبي : "هوفيلسوف وخطيب ورسول مشرع، ومحارب هازم أفكار باعث عقيدة منزهة عن الأخيلة والصور، ومؤسس وحدة روحية، ذاك هو محمد... ألا يحق بكل هذه المعايير والمقاييس التي تقاس بها عظمة الرجال أن نتساءل هل ثمة رجل أعظم من محمد؟ نعم هو محمد هو ذلك الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث... والله درمن قال :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة  
في الجاهلية والتأديب في اليتيم

هذا نظر لمارتين من فرنسا يقول هكذا وهو ما سمعتموه، وتجدونه في كتابه (ما أمي يعني محمد صلى الله عليه وسلم) في تاريخ تركيا ج 2 ص 276-277 ط باريس وتوفي في 1869م.

هناك آخرون من بلاد بعيدة أخرى من غير المسلمين من أمم الغرب يذكرون مثل ذلك أو أغرب مثل تولوستوي الروسي دكوماس كارايل وواشنطن، أرفيخ الأمريكي وجورج بونادرشو وغيرهم.. ومن المتأخرين وأسلموا - ايتيان ديني- أو نقول الحاج نصرالدين المتوفي سنة 1348هـ /1929م رفيق بلدة بوسعادة رحمه الله، والكاتب العالم قارودي وهو من الأحياء شكر الله سعيه وجاء في مجلة الشهاب القسطنطينية التي كان يشرف عليها الأستاذ العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس طيب الله ثراه، في عددها الصادر في شهر أكتوبر 1932م رواية عن الراهب أو القس المسى "لوزون" إذ قال هذا القس: "اعلموا أيها الناس أن محمدا ليس نبي

## الدراسات

آية 6 (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) قال المفسرون: هم علماء أهل الكتاب، ولكن مالنا نحن المسلمين نلتجئ أو نلتمس الحجج عند أهل الكتاب أو غيرهم من الناس؟

فحسبنا ما جاء به صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى، وأن الله سبحانه وتعالى صلى عليه وقال: (إن الله وملائكته يصلون على النبي)، وأمرنا بالصلاة عليه قال: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) (سورة الأحزاب: 6).

أولا يكفي هذا في جلال وتقدير عظمتهم ومنزلته الرفيعة عند الله جل جلاله مما لم يبلغ إليه غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ولا الملائكة المقربون؟... أو لم يقسم الله عز وجل بحياته؟... إذ قال عز وجل في (الآية 72 من سورة الحجر) (لعمرك) أي وحياتك، وهذا قسم صريح صادر عن رب العزة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما حلف الله بحياة

العرب وحدهم، بل هو أفضل نبي قال بوحدانية الله... ولو أصغى المسلمون والنصارى إلي لأزلت كل خلاف بينهم، فأصبحوا إخوانا باطنا وظاهرا".

وكذا نرى جريدة الوطن البيروتية وصاحبها مسيحي اقترحت يوما على كتابها أن يكتبوا آرائهم في أعظم رجل ظهر في العالم، ولماذا كان عظيما؟ فأجاب كاتب من أحرار الطائفة المسيحية قال: إنه هو محمد، قال : فهو أعظم رجال العالم على الإطلاق، ذلك لأنه رجل وضع في عشر سنين دينا (يقصد نشر دينا) وفلسفة وشريعة اجتماعية، وقوانين مدنية وغير شريعة الحرب، وأنشأ أمة ودولة طاولت الدهر وهو أمي، ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم العربي القرشي نبي المسلمين، (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (سورة التوبة: 33).

وهذا ما نلمحه من فحوى ما تشير إليه الآية الكريمة من سورة سبأ

القرن السادس الهجري، فكان أول من ألهم إلى الاحتفال والاحتفاء بهذه الذكرى السعيدة هم أهل المغرب، والفاطميون بالشرق وأهل الموصل بالعراق في أزمان متقاربة.

ويقول صاحب الموسوعة العربية أن ذلك يرجع إلى القرن الرابع الهجري ويذكر أهل التاريخ بالتحديد أنه يرجع إلى مستهل القرن الخامس الهجري أيام السلطان محمود سيكينيكن الغزنوي صاحب غزنة أفغانستان سنة 421هـ/1030م والذي امتدت سلطنته من أقصى الهند إلى نيسابور، نظم هذا الاحتفال من قبل أهل السنة ليقابل به ما درج عليه الشيعة في تهاويلهم وتهاويلهم في ذكرى ميلاد الحسين السبط رضي الله عنه، وروى أبو شامة حفل احياء ذكرى المولد النبوي الشريف في كل عام هو الشيخ عمر بن محمد الملا أحد الصالحين المشهورين في مدينة أربل بأرض الموصل بالعراق وكان يظهر من أنواع البر التي لم تعهد في الصدر الأول من الصدقات

أحد إلا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان الأنبياء والرسل قبله يبشرون بإتيانه (إذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) (سورة الصف آية 6) وتحققت البشارة والحمد لله.

ثم إنه كان لمولده كما لا يخفى إرهاب بوقوع حوادث وخوارق للعادة مما يدل على عظمة هذا الحدث الجليل.

ومما يلتمس ليستأنس به للتذليل على وجود هذا الاهتمام بالذكريات والعناية بها عند الأنبياء، هو أنه لما سئل عن صومه يوم الاثنين؟ قال «ذلك أنزل علي فيه، أو قال بعثت فيه أو قال ذلك يوم ولدت فيه»، رواه مسلم، أليس هذا نوعا من الاهتمام بالذكريات؟ ومضت القرون الخمسة الهجرية الأولى من ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهذه الذكرى العبة ذكر في التاريخ إلى أن حل

## الدراسات

وبلاد العجم وغيرها من تلك النواحي خلق كبير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من شهر محرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين - وهو الملك - ينصب قباب من الخشب، ويعمل بمقدار عشرين قبة وأكثر، منها قبة له، والباقي للأمرء وأعيان دولته لكل واحد قبة.

وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخلفاء المجاورة للميدان، فإن مظفر الدين يقول كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على كل قبة إلى آخرها، ويسمع الغناء ويتفرج على ما يفعلونه في القباب .

هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج الإبل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والأغاني والملاهي حتى يأتي بها في الميدان ثم يشرعون في نحرها وينصبون القدور ويطبخون الألوان المختلفة من الطعام فإذا كانت ليلة المولد، وبعد أن

والمعروف وازدهار الزينة والسرور، مع ما في ذلك من الإحسان إلى الفقراء، وإعلان كامل مشعر بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وإجلاله في قلب فاعله، وشكر الله تعالى على عباده من ايجاد رسوله الذي أرسله رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وبه اقتدى الأمير الملك المظفر أبو سعود كوكوري بن أبي الحسن صاحب أربل من أرض العراق المتوفى سنة 630هـ/1233م، فيا ترى ماذا كان يصنع في هذه المناسبة الطيبة...؟

قال ابن خلفان بعدما ذكر نبذة صالحة من محاسن هذا الملك الجليل: وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فإن الوصف يقتصر عن الاحاطة به يذكر طرفا منه فقال: " إن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده في النبي صلى الله عليه وسلم وكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من أربل مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين

يبلغ 300.000 ديناراً ذهبياً وكان ينحر في هذا اليوم من الغنم 5000 شاة و10000 دجاجة.

وكذلك هذا الأمر كان يجري مثله أو ما يشبهه بمدينة القاهرة أيام تملك الدولة الفاطمية بمصر طيلة ما يزيد على مدة قرنين كاملين أي ما بين سنة 359 إلى سنة 566هـ، -970م، وكان يحضره - الاحتفال - الخليفة الفاطمي وحاشيته ثم جميع الناس.. كما أنه كانت لهم هناك مواليد خمسة في تواريخ مختلفة.. يحتفلون بها حسب تقاليدهم المتبعة، كإحياء ميلاد علي بن أبي طالب، ومولد فاطمة، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد الخليفة الحاضر ويجري فيما ما هو مفصل في تاريخهم، وكان أول من احتفل بالمولد النبوي بمصر بعد الفاطميين هو الملك الكامل الأيوبي ملك دولة المماليك وذلك في أواسط القرن 08هـ/14م كما اشتهر عن الملك الظاهر برقوق أول من ملك مصر من الشراكسة كان ينفق في هذا

يصلّي المغرب في القلعة ينزل وبين يديه الشموع المشتعلة الشيء الكثير وفي جملتها شمعتان أو أربع من الشموع الموكبية التي تحمل كل ليلة على بغل ومن ورائها رجل يسندها حتى ينتهي إلى القلعة.

فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى المساحة على أيدي الصوفية، وهم متتابعون كل واحد وراءه الآخر ثم يجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من الناس، وينصب كرسي في الموضع الذي يجتمع فيه الناس والجند والوعاظ فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعودة إلى بلده.

وكان ممن حضر هذا الاحتفال من كبار العلماء الحافظ أو الخطاب عمر بن الحسين اليانسي الأندلسي قاضي مدينة دانيا المتوفى سنة 633هـ/1235م فأعجب بمارآه وشهده من اهتمام الملك المظفر فيما قام به من الأعمال الجليلة كما ذكرنا.

وذكر ابن الجوزي أن ما كان ينفقه هذا الملك في هذا اليوم السعيد ما

## الدراسات

القرن الثامن عشر الميلادي يقول فيما قام به أبو العباس العزفي نحو ذكرى المولد الشريف ما يلي:

«وهو الذي سن عمل المولد الشريف ببلاد المغرب، وأتى بذلك بزلفى تدينه على الله وتقربه، تعظيما للجناب الذي وجب له السمو، وثبت له العفو، فالله يجازيه خيرا بحسن نيته، ويثيبه على تعظيم هذا الموسم الذي شرف الوجود بليلتها».

وأقبل الناس يومئذ على تقدير واحترام يوم أول ليلة ذكرى مولد النبي الكريم ذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم، وشرعوا في الاحتفال بها وتعظيما، أفرادا وجماعات وأيديتها مراسيم ملوكية صدرت عن السلطان أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق ملك الدولة المرينية بالمغرب سنة 691هـ/1291م يؤكد فيها العمل على وجوب التزيين وإظهار إشارات للابتهاج والفرح في هذه الليلة المباركة وهذا اليوم السعيد، وقرر ضرورة التشديد على المتهاونين بأمره هذا والضرب على

الموسم 10000 درهما، وكانت وفاته سنة 801هـ/1398م، هكذا كان العمل يجري للاحتفال بالمولد في المشرق.

وأما في مغربنا - المغرب العربي الإسلامي الكبير هذا، فكان أول ما ظهرت هذه المنقبة الجميلة الجليلة وسطع نورها في الأفاق أن ظهرت بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى.

وكان أول من وفق لها هو الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسين العزفي السبتي في مطلع القرن السابع الهجري (13م) فحاز بذلك قصب السبق إلى هذه المكرمة الجليلة فأحيا ذكرها في المغرب، ورفع اسمها فيما بين المواسم والأعياد، وبنو العزفي هؤلاء هم من أشهر أعيان بيوتات مدينة سبتة في القرن 7هـ بالمغرب رئاسة وعلماء ودينا وسياسة وملكا كبيرا.

وفي هذا الموضوع نرى علامة الجزائر سيدي أحمد بن عمار الجزائري كتب في رحلته "نحلة اللبيب باختيار الرحلة إلى الحبيب" وهو من أعيان علماء أواسط

## الدراسات

أيدي المهملين لشأن هذه الذكرى الجلية.

وشرع السلطان بنفسه بإقامة حفل رسمي بقصور السلطنة المرينية بمدينة فاس، ودعا لهذا الحفل الكبير أعيان وعلماء وفقهاء المغرب، وكان فيمن حضر الحفل البهيج، العلامة أبو يحيى بن أبي الصبر...

ثم تتابع ملوك هذه الدولة على إقامة هذه الذكرى في أبهج مظهر وأفخر منظر ومخير...

وقد خصص لوصف هذه المظاهر الجميلة العلامة الرئيس ابن مرزوق الخطيب والمعروف بالجد فصلا في كتابه الحاقن : المسمى «المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن» ولد عام 711هـ/1311م وتوفي عام 781هـ/1379م، عن عمر يناهز السبعين سنة.

خلد في مآثر السلطان أبي الحسن ومنها: ذكر ما كان يجري حدوثه في هذه الليلة المباركة - ليلة المولد - من أنواع التألق في إظهار البهجة والسرور بمولد بدر البدور صلى الله عليه وسلم.

وهذا يحسن بنا أن ننقل لكم ما كان يجري داخل القطر الجزائري في هذه الآونة التي نؤرخها لا سيما أيام دولة بني عبد الواد الزيانية بتلمسان عاصمة الوطن الجزائر من سنة 633هـ إلى سنة 962هـ/1554-1235م.

لا سيما على عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني المتولي على عرش ملك بني زيان سنة 760هـ/1359م، قال يحيى بن خلدون أخ المؤرخ الفيلسوف الشهير عبد الرحمن بن خلدون وقد كان شهد الحفل وحضره هو بنفسه فقال: «وأطلت ليلة الميلاد النبوي الشريف على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فأقام لها بمشهور داره العلية مدعى كريما، وعرسا حافلة احتشدت لها الأمم، وحشربها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، والخليفة أيده الله صدر مجلسها ممتطيا سرور ملكه يسر الناظرين رؤياه، ويثلج الصدور عزه، وتحارفي كمالات جلالة النهى، وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته، على

## الدراسات

في تأليفه «تحلية اللبيب، بأخبار الرحلة إلى الحبيب»، قال: «هذا وقد جرت عادة أهل بلدنا الجزائر - حرسها الله من الفتن - أنه إذا دخل شهر ربيع الأول، تبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعول، إلى نظم القصائد المديحيات والمرشحات النبويات ويلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرأنها بالأصوات المطربة ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء، في المساجد والمكاتب والمزارات، وهم في أكمل زينة وأحسن شارات تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الإسلام، واحتفالاً بمولده عليه الصلاة والسلام قال: فلما استهل هذا الشهر الشريف، من هذه السنة 1166هـ / 1752م ولاح هلاله، أنشأت هذه القصيدة الموشح طالعتها:

يا نسيما بات من زهر الريا  
يلتقي الركبان

مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها  
فوق بعض، فلا تبصر إلا جمالا ولا  
تسمع إلا همسا يطوف عليهم ولدان،  
وبأيديهم مباحرو ومرشات.

وهنا أورد يحيى بن خلدون قصيدة  
من نظم السلطان أبي حمو وقع  
إنشادها في تلك الليلة وهي تحتوي على  
أربعة وأربعين بيتا من بحر المتدارك  
وطالعتها:

نام الأحباب ولم تنم

عيني بمصارعة الندم

وأورد بعدها قصائد أخرى لشعراء  
ذلك الحفل، ثم قال: "وعلى هذا  
الأسلوب مرت المواليد النبوية بعد  
هذا في مدته، أي أبو حمو الثاني -  
السعيدة، طالت أيامه، وانتشرت في  
هضاب المعالي أعلامه.

ولم يكن ليختلف الاحتفال  
بعاصمة الجزائر عن صفة الاحتفال  
بتلمسان إلا في كونه شعبيا، لا دخل  
للقصور فيه وإليك صورة عن ذلك  
فيما حكاه مفتي عاصمة الجزائر أحمد  
بن عمار في أواسط القرن الثاني عشر  
الهجري (1752).

## الدراسات

أحملي مني سلاما طيبا  
لأهل البيان

الخ...

ولله غير هذا من الموشحات  
والقصائد والأشعار كثير، وآخر من  
عرفناه من علماء العاصمة سار على  
هذا المنهاج مفتي الجزائر الشيخ علي بن  
الحفاف المتوفي سنة 1307هـ/1890م،  
ومن موشحاته في الموضوع قوله في  
طالع موشح:

يا قاصد البيت الحرام

بالله إن جئت المقام

سلم على بدر التمام

وصف له فرط المقام

وخاتمتهم شيخنا المنعم المبرور  
الأستاذ عبد الحليم بن سماية المتوفي  
سنة 1351هـ/1933م، وهو الذي ترى  
صورته جاليا إلى جانب الأستاذ الإمام  
الشيخ محمد عبده يوم زار الجزائر  
سنة 1903م فيما نشره الأخ الكريم  
الأستاذ أحمد توفيق المدني في الجزء  
الثاني من كتابه النفيس حياة كفاح،  
ص 48 وهذا مطلع موشح له رحمه الله.

يا روح سارتعطر  
من نشر أهل الخيام  
بالله سرتتخطر

واحمل إليهم سلامي

ولقد حضرنا مرارا إنشاد هذه  
الموشحات بمساجد العاصمة  
بمناسبة ذكرى يوم المولد النبوي  
الشريف.

أما في تونس بينما نرى محمد  
بن الخوجة يذكر في رزنامة السنة  
1320هـ/1902م أن بدء الاحتفال  
بالمولد كان سنة 1257هـ/1841م على  
عهد المشير أحمد باشا وإذا باين أبي  
دينار صاحب المؤنس نجده يتقدم به  
إلى أول السنة الثامنة للهجرة- أي على  
عهد الحفصيين، وهذا نص كلامه قال:  
«أما أعيادهم المشهورة ومواسمهم  
المذكورة، ومساعيمهم المشكورة،  
تعظيمهم ليلة المولد الشريف، وذلك  
لأجل محبتهم لمن ولد فيه وهو سيد  
الكائنات صلى الله عليه وسلم».

وكان أول من اعتنى بتعظيمه في  
البلاد المغربية وأظهر فيه شعائر الولادة

عهد إمارة الأمير عبد القادر الجزائري طيب الله ثراه، فإنه كان كذلك يهتم كثيرا بذكرى يوم المولد النبوي الشريف، ويخصه بالعناية التامة فيحتفل به احتفالا عظيما، حكاه عنه ولده محمد في كتابه "تحفة الزائر" قال: «كان والدي يحتفل بالمولد النبوي الشريف أيام إمارته احتفالا عظيما، فيخرج يوم المولد الشريف، هو وخاصته وأمراء جيشه إلى أرض فيحاء متسعة ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربة بحيث تقف العسكر المشاة المنظمة كهيئة قلعة مربعة الأركان ويضعون ما يحتاجون إليه من البارود والذخائر وسط تلك القلعة، ويجعلون في كل ركن من أركانها مدفعين، ثم تأتي فرقة من الخيالة فتحيط بتلك القلعة نحو عشر دقائق، تطلق البارود على الخيول المقابلة لها فتهاجم الخيول عليها وتطلق النيران حتى تقرب منها، فترجع تلك الشزيمة إلى وراء وهي لا تفتر عن إطلاق النار حتى تدخل القلعة، وتقف في مكانها الذي خرجت

السلطان أبو عنان المريني شكر الله سعيه، ثم اقتدى به بنو أبي حفص في الديار التونسية، وأولهم أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز، وكان في أول المائة الثامنة (14م) واحتفل بتشييد شعار هذا اليوم المبارك، جعل الله ثوابه في صحائفه، وأظلمه في ظل النجاة يوم لا ظل إلا ظل عرشه، واقتدى به بنو أبي حفص من بعده ولم تزل عاداتهم مستمرة على تعظيمه، فتوقد القناديل وتسرج الشموع وتكون تلك الليلة أشهر ليالي سنتهم، يطعمون الأطعمة الفاخرة احتسابا لله، قال وربما يجعلها بعضهم للمباهاة والتفاخر، ولكل امرئ ما نوى، وتكون ليلة عظمى بدار نقيب الأشراف يحضرها الأجلة من الناس والقراء والفقهاء ويقع فيها السماع والأناشيد بالمدائح النبوية، ويهرع الناس إليها من أطراف البلد وتكون عندهم من الليالي العظم.

وهكذا استمر العمل على هذا النمط مطردا في مغربنا العربي ومنه الجزائر مع الزمن على هذا النسق... إلى

نحن اليوم أمة محمد القائل فيما نصحنا به وأرشدنا وهدانا إليه، منها قوله عليه السلام فيما رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعا قال عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟... قال صلى الله عليه وسلم بل أنتم كثير ولكمكم غناء كغناء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن.

قال قائل: «يا رسول الله وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت»، وأورده الثعالبي في تفسير الجواهر الحسان...

وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله بقوله: أن معناه ظاهر ووهن المسلمين يأتي عليهم يوم يصيرون فيه مأكلة وتمتد إليهم الأيدي من كل جهة فهذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم، وأن المسلمين لا يكون عيهم يومئذ من قلة العدد، بل يكون

منه ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلك الخيول، وتطلق مدفعا واحدا أو مدفعين من الركب الذي يليها، فترجع الخيالة المقابلة لها بجميع قوتها حتى تردها إلى مكانها الذي خرجت منه، بحيث يخيل للناظر: أنها لم تخرج منه أصلا ثم تطلق النيران المتتابعة على الخيالة، ويطلق عليها من الركن المقابل لها حتى ترجع القهقري، وعلى هذا المنوال يفعل أصحاب الجهة الثالثة والرابعة من الأفعال، ويستغرق هذا العمل ما تقرله الأعين وتبتهج به النفوس».

وهكذا كان العمل في أيام الأعياد بعد الفراغ من الصلاة مدنيا وعسكريا. أما في الزمن الحاضر هذا هو كما نحن نشاهد جميعا في كل سنة مرت يقتصر فيه على اجتماع جماعة تتلو فيه قصائد وموشحات مديحية تحتوي على مآثره الفعالة ومعجزاته العظيمة صلى الله عليه وسلم، وعلى شيء من سيرته وأقواله وأفعاله مواعظ وعبرا، ونعرض أنفسنا عليها لنزن بها أعمالنا،

سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد  
فأمننا به... (2-1 الجن).

من قال به صد، ومن عمل به أجر،  
ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي  
إلى صراط مستقيم، رواه الترمذي.

فهل اتعظنا؟... وهل اعتبرنا؟... وهل  
حققنا معنى الذكرى؟... فأين الأسوة  
في أنفسنا للمأمورين بها قرآنا وسنة؟  
**(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني  
يحببكم الله) (31 آل عمران) (لقد  
كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)**  
**(الأحزاب 21)** فأين هذا التأسى؟ ولا  
يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به  
أولها.

وبالله التوفيق

عددهم كثيرا وإنما لا تغنيهم كثرتهم  
شيئا لأن الكثرة بنفسها لا تفيد إن  
لم يقرن بجودة النوع، والكمية لا  
تغني عن الكيفية، وعلة العلل في  
ضعف المسلمين هو الجبن والبخل،  
والإسلام دين القوة والمؤمن القوي خير  
من المؤمن الضعيف وفي كل خير -  
الحديث... وأخلص لنا صلى الله عليه  
وسلم فجاءنا بأكمل نصيحة وأشمل  
هداية فعن علي بن أبي طالب قال:  
"إنها ستكون فتنة! قلت ما المخرج منها  
يا رسول الله؟ فقال: كتاب الله فيه نبأ  
ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما  
بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من  
تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى  
الهدى من غيره أفضله الله، هو حبل  
الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو  
الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ  
به الأهواء ولا تلبس به الألسنة، ولا  
تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة  
الرد، ولا تنقص عجائبه، هو الذي لم  
تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: **(إنا**